خارج الدنيا

القصة الفائزة بالجائزة الثانية لنادى القصة

بقلم : أسامه أنور عكاشة

حين ينتهى اللعب .. وتغلق صناديق الطاولة تراهم وقد استداروا جميعا بمقاعدهم حول النافذة الواسعة فى ركنهم الأثير هناك .. فى ذلك المقهى المطل على طريق الكورنيش فى الاسكندرية .

مجموعة الوجوه الحالدة التى تجتمع فى نفس المكان منذ زمن بعيد . . ربما امتد الى سنوات طويلة .. حتى أصبحت ملامحها تتوافق فى اتساق عجيب مع الزخارف الخشبية المائلة على جدران المقهى وواجهته الخارجية وكأنها جميعا ألوان مختلفة فى لوحة واحدة .

وفى المقهى مجموعات ، « وشلل » أخرى لاشك أن لها بدورها امتدادا فى الأصاله والقدم .. ولكل منها بالاخرى صلات تمر باطوار تبدأ بالتحية وتبادل الصحف وتنتهى أحيانا بشىء من الاندماج المؤقت وتبادل أفراد الشلة . . والامر عادة لايتطور أكثر من ذلك .. فكل مجموعة تتمتع بخاصية الالتفاف حول الذات وتستخدمها فى الوقت المناسب اذا بدا فى الأفق « خطر الخطف » أو الغزو .

ولكن مجموعة النافذة .. هى على وجه التقريب أبرز مجموعات المقهى وأشدها اغراء لمحاولات الغزو الا أنها فى نفس الوقت أقدرها على ابعاد المتطفلين الذين يحاولون الانضمام اليها والذين تتابعت موجاتهم عبر الايام بلا جدوى .

لهذا كان أمرا غريبا أن يستطيع ذلك الغريب عن الشلة بل عن المقهى كله أن يتسلل اليها فى أيام قلائل ليصبح من أبرز الشخصيات فيها .

لم يكن شابا لتجذبهم اليه الذكريات ولم يكن مرحا ليتخذوه واجهة لأحزانهم، بل ولم يكن يتمتع بتلك الصفة التى يطلقون عليها «قوة الشخصية» .. على العكس .. ربما .. كان ضعيفا .

فالسيد/راضى بلغ من العمر تلك المرحلة التى لاتستطيع فيها أن تعرف اذا كان فى الخمسين أو تعدى الستين . . ضئيل .. قمىء .. أبرز مافيه رأسه التى يبدو واضح الضخامة بالقياس الى حجمه والذى خلا من الشعر الا بعض ما خلفته السنون .

شىء واحد فقط يجعلك تحس بالميل

الى هذا الرجل ·· شيء يتهدد فى قسماته ويتهدج فى نبرات صوته ·· شيء يجعلك تحس نحوه بعاطفة الاشفاق · · جاذبية غريبة ·· تشعر فيها بضعفه وكثرة مشاكله وحاجته لمن يواجهها معه ! هكذا تسلل السيد/راضى الى الشلة واصبح بين يوم وليلة مركز الالتفاف فيها ·· منه تبدأ المناقشات وتتفرق بين الجميع· ثم تتجمع وترتد اليه من جديد ·

وبعد أن ينتهى اللعب كل ليلة وتنفد ضحكات الغالب وتهدأ ثورة المهزوم ·· تبدأ ـ وكأنها روتين محتوم ـ المناقشات المعتادة ·· بطريقة تؤدى حتما الى السؤال الذى يقال كل ليلة منذ ان جاء الوافد الجديد ·

ـ ازى الاحوال النهارده ياراضى بك ؟

ويتنهد السيد/راضى ·· ويبدأ فى عرضه اليومى لمشاكله ·

وهو رجل صريح لايطيق كتمان شيء مما فى نفسه ·· ومنذ اليوم الاول عرفوا عنه كل شيء فهو كما اخبرهم وكيل الادارة المالية بالمحافظة ، موظف درجة ثانية له شأنه ·· واب لضابط فى البحرية وطالبة فى الجامعة ·· وحالته المالية لابأس بها ·· ورغم كل ذلك فله مشاكله · · ومتاعبه ·· متاعب ومشاكل هى فى الواقع كل كيان السيد/راضى ووجوده على الاقل فى نظر رفاقه الجدد ·· لاشيء يعرفونه عنه غير ذلك ·

مشكلة رجاء ·· ومتاعب رفعت ·· الابن والابنة ·

رجاء لاتريد أن تتزوج ·· ورفعت يريد الزواج بفتاة يونانية ·

هو لايهمه موضوع رفعت الى حد التأزم والالم ·· فقط يحس بالقلق · · وهو يردد دائما ان رفعت رجل ·· رجل ناضج يتحمل مسئولية نفسه ·

ـ طيب ده راجل ·· هو حر ·· عقله فى راسه يعرف خلاصه ·· يجوز اجريجية ولا حتى هندية أنا خلاص عملت اللى على انما البنت يا جماعة مش عارف اعمل معاها ايه ·· دى فى رقبتى ·· جالها لغاية دى الوقت تلات عرسان · · وكل ما اكلمها تقول مش عايزه اتجوز ·

ـ يمكن بتحب يراضى بك ؟

··· والعجيب أن هذا التعليق أثار فى وجه الرجل انفعالا مغايرا لماتوقعه الجميع كان ينتظرون منه شيئا من الغضب أو حتى السخرية والتهكم ·· ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ·· بل رأوا جميعا اشراقة عريضة تفرض نفسها على وجهه فتبدأ واضحة رغم محاولته المستسلمة لمنعها ·

ـ طيب وافرض انها بتحب يا سيدى ماتقول ·· أنا أبوها ·· ومن صغرهم وانا بعاملهم زى اخواتى ·· دلوقت بينظرولى كصديق ·· أنا ربيتهم تربية مثالية ·· ويوم امهم ما ماتت مخلتهمش يحسوا بغيابها ومفكرتش أبدا أجبلهم مرات أب فى البيت ·· يعنى قصدى ولا مؤاخذة ان محدش فيهم بيخبى على حاجة ·· لا الواد ولا البنت رفعت نهار ماحب البنت الاجريجية قال لى ·· طيب تصدقوا بايه ! انه لما كان يعرف انه هيغيب فى البحر يقولى ان صوفى حتتصل بالتليفون يابابا وقولها كذا ·· كذا ··

وتنطلق من الجميع تعليقات الدهشة ويذكر كل منهم طرفا عن علاقته السيئة

بأولاده ٠٠ ويهنئون السيد/راضى بحرارة يشوبها حسد لايخفونه ، وهم بعد ذلك قد تبنوا الموقف ٠٠ وتقصوا المشكلة ، وراحوا يحاولون تلخيص تجاربهم وآرائهم فى حلول يقدمونها لزميلهم الذى لم يصدر حكما ولا رأيا ، بل كان يتلقى كل شىء فى حياد تام ثم يبدأ مرة أخرى فى عرض المشكلة ٠٠ وهو فى كل مرة يجد لها جانبا جديدا يستأثر باهتمام الجميع ، ويحاول دائما أن يجددها فى كل جلسة ٠٠ بل لقد كان يبدو أنه يحس بلذة عميقة فى حديثه الدائم عن رجاء ورفعت ٠٠ بتلك اللهجة الضعيفة المليئة بالاستعطاف وطلب المساعدة ٠ ٠ كانت عيناه تبرقان دائما بتلذذ عارم وهو يطالبهم بأن يساعدوه فى ايجاد حل يريح ضميره ويضمن مستقبل البنت على الخصوص ٠

ولم تمض فترة طويلة حتى بدأت تلك اللذة تبرق فى عيون الجميع كلما اجتمعوا ليناقشوا الموضوع ٠

كلهم تقريبا ٠٠ وتقريبا لان الأمر كان يختلف قليلا بالنسبة لأحدهم ٠

فمنذ سطع نجم السيد/راضى فى سماء الشلة أخفى ذلك بريقا آخر لنجم قديم كان قبل حلول الوافد الجديد مركز التجمع والالتفاف وهو وان كانت جاذبيته من نوع آخر يختلف عن جاذبية السيد/ راضى الا انها لم تستطع الصمود لها ·· لقد كان نفوذ محجوب افندى يعتمد فيما مضى على قدرته الخارقة فى «التنكيت» ·· والسخرية من كل شىء ومن كل انسان، وقدرته ـ وهذا هو المهم ـ فى تدبيج الأكاذيب المكشوفة التى يصر دائما على صحتها رغم علمه بأن الآخرين لايصدقونها ورغم اعترافه أحيانا بأنها من خلق ساعات التجلى التى يهيئها له « ينى » «يارمان» المقهى ·

شىء واحد كان محجوب افندى يرفض دائما الخوض فيه أو الحديث عنه ، وهو متاعبه العائلية ·· بل كان يغضب اذا حاول أحد الجالسين حوله أن يسأله عنه· مع أنهم جميعا يدركون مما سمعوه فى المنزل وما أخبرهم به « ينى » أن الرجل يعيش فى مأساة ·· زوج مريضة مقعدة وابن «بلطجى» يعاشر الأوغاد ولا يزور المنزل قدر زيارته لقسم الشرطة ، وابنة مطلقة معلقة بأطفال ثلاثة وبقضايا النفقة المزمنة ·

كل هذا ومحجوب افندى يرفض أن يشكو أو يطلب المواساة ·· حتى الخمر أيضا لم تستطع أن تحل عقدة لسانه ·· وضاقوا بتكتمه ·· فضاقوا أيضا باكاذيبه وتشنيعاته ، وما ان ظهر السيد/راضى بضعفه وكثرة شكواه ودعوة المشاركة الملحة فى حديثه حتى خلا له الجو ·· وبويع فى تحالف غير منظور بقيادة الجلسات المسائية فى الركن المعهود عند الشرفة ، وتقهقر محجوب أفندى وانتقل من مركز الدائرة الى نقطة مافى محيطها·

اذن فقط كان محجوب أفندى هو الوحيد بينهم الذى يرفض فى اصرار أن يندمج فى الموضوع ·· وهو يرى أن مشاكل السيد راضى بغض النظر عن شعوره الشخصى نحوه ·· ليست الا تفاهات ·· وتفاهات سخيفة ·· وهو يعجب لانسياقهم وتحمسهم المتشنج لها وكأنها مأساة توشك أن تسحق الرجل المسكين ·· راضى بك ·· هه ! انها بلا شك غريزة القطيع والا فماذا يفعلون امام المشاكل الحقيقية ·· أمام المآسى ·· امام ظروفك انت مثلا يامحجوب أفندى ؟

الموازين فى رأى محجوب افندى قد اختلت وكل شىء يبدو فى وضع انقلابى حتى الرجال يلوحون كما لو كانوا قد استووا على رءوسهم ·· وهكذا توفر له الدافع لكى يتصدى للتيار ·· أية مشاكل تلك التى يتحدث عنها هذا الرجل ·· راضى بك ·· الولد سيتزوج يونانية ·· والبنت لاتريد أن تتزوج ·· ماشاء الله ستنطبق السموات على الارض ·· والاغبياء كالبطانة المخمورة يرددون الصدى فى انفعال أحمق ·· هذا الرجل اللين الناعم وصوته الضعيف المنكسر ·· وبريق التلذذ فى عينيه ·· هذا الأفعى قد حذرهم ·

ـ جرى ايه ياجماعة ؟ انتم هاتعملوا من الحبة قبة ؟

متسيب الولد والبنت يعملوا اللى عايزينه ياراضى بك وتريح نفسك ·

قالها محجوب أفندى وصمت الجميع·· ونظر اليه السيد راضى ··بدت فى عينيه

التماعات غاضبة ·· ولـــكنها مع ذلك ضعيفة ·· التماعات غاضبة ضعيفة ·· وما لبث انقال في برود لين : انت بتقول كده يا محجوب افندى على شان دول مش ولادك واللى ايده فى الجنة غير اللى ايده فى النار ·

وبقوة لاتتنـاسب مع الدافع أغضبت هذه العبارة محجوب افندى غضبا هائلا فصاح حانقا : كلنا عندنا أولاد ياأستاذ راضى ·· وعارفين غلب الاولاد ·· ولا أنت فاكر يعنى لعب العيال اللى بتقول عليه ده مشكلة ·· تعال شوف ···

وتكهرب الجو ·· ولكن السيد/راضى لم يشأ أن يرد ·· فقد استدار بعينيه الى الجميع وهـو يبتسم ابتسامة خافتة ويضم شفتيه وكأنه يعرض الامر عليهم·

وما لبثوا جميعا أن استنكروا موقف محجوب افندى ·· وعجبوا له كيف يلوم السيد/راضى لا لشىء الا لانه وثق بهـم وفتح لهم صدره وطلب مساعدتهم فى حل مشاكله ؟

وثار محجوب افندى عليهم جميعـا ، ونهض غاضبا بعد أن هـــددهم بأنه لن يريهم وجهه ثانية ، ولم يحاولوا هم أن يمنعوه رغم أن السيد راضى طلب منهم فى لهجة المعتذر الا يتركوا الرجـــل يخرج غاضبا ! قالوا له ان محجوب أفندى قد عودهم بين الحين والحين أن يختلق سببا للشجار مع أى واحد منهم ليتركهم بضعة أيام يختفى خلالها ثم يعود ثانية بعد أن يكون قد نسى كل شىء ·· وقال السيد راضى وهو يبتسم ساهما :

ـ الظاهر ياجماعة لمـا يرجع محجوب افندى ·· لازم امشى أنا ··

وقالوا جميعا كلاما كثيرا فى صـوت واحد ·· ولكنه لم يسمع شيئا ·

* * *

منـــذ أيام وهو يحس بأن كل شىء يقترب من النهاية ، وان شيئا فى تلك النهاية لابد يتعلق بهذا الرجل محجوب افندى ·· فقد كانت له طول الاسـبوع الاخير نظرات غريبة مقلقة اتعبت أعصابه الى جانب الموضوع الآخر ·· موضـوع رفعت ورجاء ·

هذا الموضوع اتسع وتطور الى درجة مخيفة ·· حتى لقد أفاق مرة فوجد نفسه يتحدث اليهما بانفعال حقيقى ·· أفزعه وجعله يتساءل دائما : هل جننت ؟

ولكنه الآن كف عن التسـاؤل وبات يفكر فى حل للمشكلة يريحه ويخلصـه من الدوامة التى تدور فى عقله وكم كان فزعه هائلا حين اكتشف ان الضباب قد غلف كثيرا من حقائق ماضيه وان الامر لايحتاج الآن الا لايام قليلة حتى يفقد كل صلة بذلك الماضى وكان يرى تلك الايام قادمة فى سرعة مخيفة ·· لقد حـدث الامر قبل ذلك كثيرا ·· وكان فى البداية مجرد تسلية عابرة لاتكلفه الا الضحكات ثم تطور حتى بلغ هذه الصورة منذ دخل هذه المقهى وتعرف بهؤلاء الناس ·· لقد كان الامر سهلا معهم فانزلق هو أيضا حتى أصبح من الصعب عليه أن يتراجع الى الوراء · بل أصبح مستحيلا عليه أن يتذكر ذلك الوراء الا ان اعظم ما يخشاه الآن هو النهاية ·· وشىء فى أعمـــاقه يشعره بأن هذه النهاية ترتبط بعـودة محجوب افندى ·· لايدرى لماذا ، فقط هو لايحس بالارتياح لطريقة هذا الرجل فى معاملته لقد خرج معلنا أنه لن يعود

وهم لايصدقونه ويقولون انه سيعود .. ولو عاد فلم يتسامح معه مطلقا.. ويجب أن يستعد لهذه العودة .. ولكن أليس من الأفضل الا يذهب هو ؟ أجل . . . ماحدث للآن ، فيه الكفاية .. يجب أن يتركهم .. وقريبا جدا .. ربما بعد أيام قليلة سيودعهم .. سيقول لهم انه ينوى السفر الى القاهرة والاقامة هناك .

ولكنه قبل أن ينفذ ما اعتزم.. فوجيء بعودة محجوب افندى .. ذهب الى المقهى كعادته أصيل كل يوم فوجده هناك .. يحتل المقعد الرئيسي في وسط الشلة عند منتصف الشرفة ويضحك مع الآخرين ، ويبدو فى حالة نفسية رائعة .. ولاحظ السيد راضى ما ادهشه .. كانوا جميعا يجلسون فى حالة تأهب .. صناديق الطاولة لاوجود لها .. الطلبات وبقايا الطلبات ركنت جانبا .. القامات معتدلة وهناك شيء فى الوجوه يتارجح بين القسمات الضاحكة ، شيء لم يدر السيد/ راضى كنهه ولكنه شعر به كتيار بارد يغزو اطرافه ..

أهلا أهلا ... ازيك ياراضى بك ؟

قالها محجوب افندى وهو يرنو لافراد الشلة ، ولدهشة السيد راضى البالغة يغمز لهم بعينه .. وقبل أن يجلس بادره الرجل والابتسام الغريب لايفارقه :

ـ ايه أخبارك .. ازى الاستاذ رفعت .. والست رجاء !

وارتفعت الاصوات تطلب من محجوب افندى أن يمهل الرجل حتى يجلس ويلتقط انفاسه ولكنه لم يجلس .. بقى السيد «راضى» واقفا .. وتأكد أن هناك شيئا خطيرا يتعرض له بصفة مباشرة ، وخرج صوته ضعيفا متهافتا :

ـ فيه ايه ياجماعة . . مالكم ؟

ورد محجوب افندى متجاهلا سؤاله .

ـ مقلتلناش ايه اخبار رجاء ورفعت ؟

رجاء ورفعت ؟ لما هذا الالحاح وهم يعلمون أنه سيحدثهم عن كل شيء من تلقاء نفسه ؟ . .ونظر الى الآخرين فوجدهم جميعا صامتين .. ينتظرون رده على محجوب افندى فقال :

رجاء ورفعت .. مالهم .. كويسين .

وقبل أن يكمل كلماته ارتفع فى أذنيه صوت محجوب افندى وقد امتلأ بالغضب :

ـ انت كذاب ياراضى بك ..

وجلس السيد/راضى .. انهار الثقل على كتفيه وصفعته الكلمات كريح ثائرة تضعضعت حواسه وأتته النهاية التى كان يتوقعها .. وشمل الضباب كل شيء .

واندفع محجوب يتم ما لديه :

ـ قال رفعت ورجاء قال .. رجل زى ده يضحك عليكم ؟ .. المصيبة ان عمره ماأجوز .. والجماعة اللى سألتهم فى المحافظة افتكرونى مجنون لم قلتلهم ان له ابن فى البحرية وبنت فى الجامعة .. قالولى طول عمره عازب وساكن لوحده ولحدش يعرفه غير فى الشغل .. ومن يوم ماانحال على المعاش ماشافوش وشه ورد واحد من الجالسين متفكها :

ـ طيب وماله يامحجوب افندى .. هو انت يعنى كنت بتبطل فشر ..

وعبست اسارير محجوب افندى وهو يجيب :

ـ وهـو ده فشر ده ؟ طيب انا كنت بافشر وانتم عارفين ان أنا بافشر ·· لكن الراجل ده قعد ياكلكم الأونطه شهرونص ·· الولد ح يجوز اجريجية ·· والبنت مش عايزه تجوز ده راجل مجنون ··ايه الى خلاه يالف الرواية دى كلها ؟

وطالت مناقشاتهم حتى اتفقوا على أنهم كانوا ضحية رجل خبيث استغفلهم جميعا وبحث عنه البعض ليطردوه ·· وسـألوا عنه الجرسون ·· ولكنه تبخر ·

***

وبعيدا ·· فى أقصى الغرب من شاطىء البحر ·· كان يجلس ·· قريبا جدا من البحر ، الشارع خال مظلم ·· والليل بارد قاتم ·· وصوت الموج كدقات طبول ممزقة ·· والرجل يجلس فى هـدوء ويفكر فى الليل ·· والبحر والدنيا ·· وأشياء أخرى كثيرة · ·وكان تفـكيره منفصلا عن ذاته ولا يتجه لاى هدف ·· لم يكن يفكر مثلا فى معنى جلسته ومتى سينهض ·· والى أين يذهب ·· كل مافى ذهنـه ·· افكار مجردة ·· وبين الحين والحين ·· يصل الى قدر من الالهـام الفكرى فيقرر لنفسه ان آخرالدنيا هو البحر ·· ويقرر حقائق أخرى كثيرة ثم ينساها ·

واقتربت منه خطوات هائلة ·· تدق الأرض بأقدام حديد ··· كان الشرطى قد لمح من بعيـد كتلة مظلمة على سـور الكورنيش فتوجه نحـوها ولم يلتفت اليه الرجل ···

ـ السلام عليكم ··

ولم يرد ·· الرجل حدجه بنظـرة واسعة يبدو فيها الخوف :

ـ ايه اللى مقعدك هنا يا حضرة ؟

وسمع السؤال وفهمه ولكنه لم يدر بمـاذا يجيب ·· هـل يجب أن يكون هنـاك سبب لوجوده هنا ، وصاح به الشرطى : ما بتردش ليه يا افندى ·· اسمك ايه ؟

وظهـر على وجه الرجـل تعبـير من الدهشة تحول بعد لحظة الى فزع حقيقى

ـ اسمى ··· اسمى ··· اسـمى رفعت ·

ـ وفجأة أشرق وجهه ·

واقترب منه الشرطى ··· وساله فى صوت مستريب : بتشتغل ايه يا سى رفعت ·

ـ طـابط ·· ظـابط فى البحرية ··· وتراجع الشرطى قليلا ثم انطلق ضاحكا ··· وأثارت ضحكاته الرجـل فصاح : ايه ؟ ··· أنا مش كداب ··· مش كداب ·

ثم خفت صوته وارتد الى داخله حتى أصبح نشيطا مكتوما ·· وهز الشرطى رأسه وكأنه فهم شيئا ثم قال : يعنى كان لازم تتقل العيار كده ··· قوللى انت ساكن فين ··

ونظر اليه الرجل فى حيرة عنيفة·· وزاح يتمتم : بيتى ··· بيتى ! موش عارف ··· مش عارف وكأنمـا كان الشرطى ينتظر الاجابة فمد يده واحاط كتفى الرجـل بذراعه : طيـب تعـالى معايا ··

ـ فين ؟ ··

وأجابه ضاحكا فى سخرية :

ـ حنتفسح شوية ···

واستسلم له كطفل صغير ·· وسارا معا ·· الشرطى يعجب لأن رائحة الخمر لا تفوح من فم الرجل ··· وهو قـد عاد للتفكير فى الليل ··· والبحر والدنيا ·